مجلة الإحياء، المجلد: 22، العدد: 31، جوان 2022، ص - ص: 791 – 802
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

مدينة أشير من خلال الكتابات التاريخية والمصادر الجغرافية في العصر الوسيط

Achiir City through Historical Writings and Geographical Sources In The Middle Age

د/ نعيمة بوكرديمي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
مخبر تاريخ الإنسان والعمران والتراث في منطقة حوض الشلف
boukridiminaima@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/01/09 تاريخ القبول: 2022/03/01

الملخص:
شهدت مدينة أشير حسب ما تطلعنا به الدراسات التاريخية وأوصاف الرحالة الجغرافيين تطورات في الناحية السياسية ونمو اقتصاديا وازدهار في الحركة الفكرية والثقافية وتوسعا في الشبكة العمرانية، وهو ما انعكس على المجتمع الأشيري الذي عرف تنوعا وثراء ثقافيا، ورقيا حضاريا أخرجه من طور البداوة إلى طور الحضارة.
الكلمات المفتاحية: مدينة أشير؛ الكتابات التاريخية؛ المصادر الجغرافية؛ الخصائص الطبيعية؛ المقومات الاقتصادية؛ الثقافة والعمران.

Abstract:
The city of Achiir, as we look forward to historical studies and the descriptions of the geographical nomads, witnessed developments in the political field, economic growth, prosperity in the intellectual and cultural movement and expansion of the urban network, which was reflected in the Assyrian society, which knew a cultural diversity and wealth, and a cultural paper that brought it out of the stage of the obese to the development of civilization.
Key words: Achiir City; Historical writings; Geographic sources; Natural characteristics; Economic ingredients; Culture and Urban.

مقدمة:
بالرغم مما كتبه الكثير من المؤرخين والرحالة الجغرافيين من دراسات وأوصاف عن بلاد المغرب الأوسط، إلا أن ما كتبوه بخصوص هذه المنطقة بصفة خاصة يبقى ناقصا، ذلك لكون هؤلاء لم يكونوا يعرفون عن بلاد المغرب الأوسط إلا القليل، فماعدا إفريقية التي تمكنوا من معرفة مسالكها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وشبكتها العمرانية بصفة جيدة امتازت دراستهم وأوصافهم لباقي جهات المغرب الأوسط ومنها مدنه الداخلية كمدينة أشير موضوع هذه الدراسة بالشمولية أن لم نقل بالتقزيم والنزر القليل، وذلك مقارنة بما لعبته من أدوار في صنع أحداث بلاد المغرب الأوسط بصفة خاصة والمغرب الإسلامي بصفة عامة. وعليه فإن من جملة من التساؤلات التي ينبغي الوقوف عندها نذكر ما يلي:
ما هو الموقع الجغرافي لمدينة أشير؟ إلى متى تعود نشأتها وتأسيسها؟ ثم ماهي أهم الخصائص التي تميزت بها مدينة أشير عن غيرها من مدن المغرب الأوسط من خلال الدراسات التاريخية والمصادر الجغرافية طبيعيا واقتصاديا وثقافيا وعمرانيا؟

أولا: الموقع الجغرافي لمدينة أشير[1]

تقع مدينة أشير حاليا حسب الدارسين والباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة ومنهم الدكتور حساني مختار بنواحي بوغار[2]، وهي تتواجد في طرفي إفريقية الغربي مقابل بجاية، وتبعد عن الجنوب الشرقي لمدينة الجزائر العاصمة بحوالي 150 كلم، كما تبعد عن عين يوسف الحالية التابعة لمدينة المدية في سفح جبل التيطري بحوالي 12 كلم[3]، يحدها جنوبا قصر البخاري، ومن الجنوب الشرقي مدينة مليانة والخميس ومن الناحية الغربية جبل شعبة[4] ، وذلك بالاستناد على ما ذكره قبله المؤرخ مبارك بن محمد الميلي عن موقعها الجغرافي الذي قال في شأنه: "وهي في سفح جبل التيطري بالجنوب الشرقي من البرواقية، وغربي جبل شعبة وشمال قصر البخاري قرب ثلاثا الدوائر ..."[5].

وقد ورد ذكرها في مؤلفات الجغرافيين العرب في العصر الوسيط، ومنهم البكري، وعبد الرحمن ابن خلدون، وغيرهم باعتبارها مدينة هامة في الفترة الزيرية، وقد أشار إليها ياقوت الحموي (ق..../ م) ووصفها بقوله: "أشير بكسر السين وياء ساكنة وراء، مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرف إفريقية الغربي مقابل بجاية في البر"[6].

أما ابن حوقل (ت ق 367هـ/977م) ذكر مدينة أشير فوصفها بقوله: "مدينة حصينة لها عيون ترة"[7]، كما ذكرها الحسن الوزان (ق10هـ/16م) في كتابه وصف إفريقيا عندما زار بلاد المغرب الإسلامي قائلا: "أما مدينة أشير فتقع فوق ربوة تطلُّ على بلدية الكاف الأخضر ناحية شلالة الغداورة، وتبعد بحوالي 10 كلم عن شمال شرق عين بوسيف، وهي أول عاصمة للزيريين أجمع المؤرخون الجغرافيون على أن تأسيها يرجع إلى زير بن مناد الصنهاجي سنة 324هـ/936م، ووسعت على عهد خليفته بلكين سنة 361هـ/972م، ووقع اختيار مكانها نظرا لوفرة المياه به، وإطلالها على سفوح الجبال الدائرة بها، وكذا كما كانت الحياة العلمية فيها رائجة، جلب لها أشهر البنائيين من إفريقية والمسيلة، كما شُيِّدت بها القصور كقصر بنت السلطان الذي مازالت بعض أطلاله شاهدة عليه[8]، وبقد بُنيت المدينة على ثلاثة مراحل، التأسيس وبناء الصور وتشييد القصور والمنازل والحمامات[9].

كما وردت في بعض الدراسات الحديثة حيث ذُكرت بشأنها قائلة: "فهي تستند على السفح الجنوبي للكاف الأخضر في مقابلة مدينة بنية التي لا تبعد عنها إلا بمسافة 2 كلم ونصف، وهذه الأخيرة تقع على السفح الشمالي الغربي لجبل كاف تسيمسايل الذي يُشكل في هذه المنطقة هضبة تطل على سهل وادي الهواد[10].

وعليه ومن خلال تربعها على هذه الحدود يتضح لنا أنها قد استحوذت على مساحة إجمالية تجاوزت 53 هكتار[11]، وهو ما ساعد على تنوع خصائصها الطبيعية والبشرية والاقتصادية ونمطها العمراني وثرائها الثقافي[12].

ثانيا: نشأة وتأسيس مدينة أشير

أسست مدينة أشير في جبال التيطري على يد زيري بن مناد (ت360هـ/971م، وقد شرع في إنشائها سنة (334هـ/ 935م)[13]، ذكرها الرحالة الأندلسي البكري (ت487هـ/1094م)[14]، في إطار وصفه لجغرافية بلاد المغرب الإسلامي قائلا في شأنها: "هي مدينة أسست في زمان قريب من زمانه من سلطة كانت تحكم أيامه، وهذه الأخيرة كانت منطلق قبيلة صنهاجة نحو تأسيس دولة ستحكم ثلثي المغرب الأوسط ..."[15]، كما خصها الرحالة ابن حوقل (ت367هـ/977م) في حديثه عنها قائلا:" هي مسكن آل زيري بن مناد، كانت

المدينة في عصره مسكونة من قبل قبيلة تلكانة الصنهاجية، وهي المدينة الأولى التي أقامتها هذه القبيلة بعد انتقالها من مرحلة البداوة إلى التحضر"[16].

أما عن أسباب بناءها، فحسب ما تطلعنا به الدراسات التي اهتمت بتاريخ مدن المغرب الأوسط في العصر الوسط، ومنها مدينة أشير، فترجع بالدرجة الأولى إلى ذلك التنافس الشديد والمحموم والساخن الذي كان سائدا وقائما بين القبائل المغربية وفي مقدمتها قبيلة صنهاجة[17] وزناتة وكتامة، واستمرار التطاحن والحروب والصراعات بينهما وهو الأمر التي حتم الاهتمام بإقامة الحصون والتحصينات للحماية[18].

وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1406م) قائلا: "خط زيري مدينة أشير ليتحصّن بها في سفح الجبل المسمى تيطري بأمر المنصور فكانت من أعظم مدن المغرب "[19].

وتذكر الدراسات التاريخية على أن المدينة شيدت في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر القائم بأمر الله (ت467هـ/1075م)الذي ساعد زيري بن مناد (ت360هـ/971م) بالأموال والعمال، ومن ثم عمل على التحالف مع صنهاجة للوقوف أمام الخطر الزناتي الداهم[20]، ونخص بالذكر المؤرخ مبارك بن محمد الميلي الذي ذكر بشأن ذلك قائلا:" كانت بين صنهاجة وزناتة حروب بسبب الجوار في المواطن، فلما قوي أمر زيري بن مناد في قومه ارتاد مكانا حربيا اقتصاديا يجمع بين المناعة والإشراف على مواطن زناتة وكثرة المياه وسعة الفضاء ، فواقع اختياره على موضع أشير، فشرع في إنشاء مدينة سنة 324هـ/ 936م ، وجلب لها البنائين من المسيلة وطبنة وغيرهما"[21].

ويوافقه في قوله المؤرخ عبد الحليم عويس الذي قال عنها: "قد أختطها زيري للتحصن بها في سفح الجبل المسمى بتيطري، وجاء بالبنائين من المدن التي حولها، وهي المسيلة وطبنة وغيرها، وشرع في إنشائها سنة 334 ه /935م، وأسكن الناس فيها وبنى سورها وحصنها"[22].

ثالثا: الخصائص الطبيعية والاقتصادية:

1- **الخصائص الطبيعية**:

1-1- **حصانة الموقع**: يجمع المؤرخين والجغرافيين الذين أرخوا لمدينة أشير ووصفوا طبيعتها على قوة حصانتها[23]، وحول مسألة التحصين هذه يخبرنا الجغرافي المعاصر للحماديين البكري (ت 487هـ/1094م) من خلال كتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب قائلا: "بأنها مدينة جليلة حصينة ليس في تلك الأقطار أحسن منها، ولا أبعد متناولا ومراما، ولا يوصل إلى شيء منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال في شرقها وسائر نواحيها لا تزل عنها العيون، فكيف الإقدام، وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها"[24]، ثم يخبرنا البكري عن تفاصيل بناء سورها فيقول: "والذي بنى سورها بلقين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة سبع وستين وثلاثمائة (367ه)"[25].

ومن جهته يصف لنا الرحالة ابن حوقل (ت367هـ977م) بشأنها حصانة قائلا: "أشير مدينة بحصن يسكنها الزيري ابن مناد، ولها سور حصين"[26] كما ذكرها الجغرافي الإدريسي وهو أحد الجغرافيين المعاصرين للدولة (ت560هـ/1167م) ووصفها بأنها حصن حسن البقعة"[27].

أما صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار فيذكر بشأنها قائلا: "بنى زيري سورها وحصنها وعمرها، فليس في تلك الأقطار أحصن منها، وهي بين جبال شامخة محيطة بها "[28].

وقد أكدت الاستكشافات الأثرية والحفريات ما أورده البكري عن أن المدينة كانت محصّنة طبيعيا كما يجب[29].

ومن خلال جملة النصوص هذه يتضح لنا تأكيد وإجماع واتفاق المصادر التاريخية والجغرافية على حصانة موقع مدينة أشير من الناحية الطبيعية، حيث استطاعت من خلال موقعها أن تصبح من أعظم مدن المغرب الأوسط من ناحية التحصين والمناعة.

1-2- **طبيعة المناخ:** حسب ما تطلعنا عليه المصادر الجغرافية التي تعرضت إلى موقع مدينة أشير، ومنها صاحب كتاب معجم البلدان، فإن المدينة تنتمي إلى منطقة الأطلس التلي، وبالتالي فإن طابع المناخ الذي يميزها هو المناخ المعتدل الذي يمتاز بالدفء والأمطار شتاء والحرارة والجفاف صيفاً[30].

1-3- **الغطاء النباتي (الثروة النباتية):** أما فيما يخص هذا الجانب فإن المصادر التاريخية والجغرافية لم تطلعنا على أي معلومات حول نوع الغطاء النباتي الذي كانت تشتهر به مدينة أشير ومع ذلك، فبما أن النبات هو امرأة صادقة عن طابع المناخ السائد في أي منطقة من المناطق الجغرافية كما يؤكد لنا الجغرافيين وأهل الاختصاص في هذا المجال، وبحكم أن طابع المناخ الذي يسود مدينة أشير هو المناخ المعتدل، فإن نوع الغطاء النباتي الذي تشتهر به مدينة أشير هو نباتات المناطق المعتدلة التي تتناسب مع طبيعة هذه البيئة[31].

1-4- **الثروة المائية (مصادر المياه):** بالرغم مما توضحه النصوص الجغرافية عن غنى مدينة أشير بمصادر المياه، ومن ذلك نص الرحالة والجغرافي البكري، وصاحب كتاب الاستبصار اللذان يصفانها بقولهما: "وداخل مدينتها (يقصد أشير) عينان، لا يبلغ لهما غور، ولا يدرك قمر إحداهما تعرف بعين سليمان، والأخرى بعين تلانترغ"[32]، إلا أن ما تؤكده المصادر المتأخرة عن زمان البكري، والحفريات التي أجريت في موقع المدينة مؤخرا، تظهر أن المدينة كانت قليلة المياه، وأن سكانها كانوا يضطرون إلى تخزين مياه الأمطار المتساقطة على سقوف ديارهم لاستهلاكها عند الحاجة إليها أيام الجفاف والقحط وندرة الأمطار في فصل الصيف[33].

2- **المقومات الاقتصادية**:

إلى جانب الخصائص أو المظاهر الطبيعية التي تميزت بها مدينة أشير في العصر الوسيط، اشتهرت المدينة بمميزات اقتصادية شملت النشاط الزراعي والحرفي والتجاري.

غير أن الملفت للانتباه، أن هذا الجانب الاقتصادي لم يحض بنوع من التوسع والتفصيل، وإنما اكتف فيه المؤرخين الدارسين لمدينة أشير، وكذا الجغرافيين والرحالة بإشارة عابرة وعامة وسطحية صعبت للباحثين مهمة الوقوف على المعطيات والمعلومات بكل تفاصيلها ودقتها في هذا الجانب المهم من الدراسات.

2-1- **النشاط الزراعي**: من بين ما يذكره المؤرخين والجغرافيين الرحالة من معلومات حول مدن الدولة الحمادية، ومنها مدينة أشير، أن هذه الأخيرة كانت تشمل أراضي طيبة، وجبال للأمطار وأودية حافظة لها[34].

وقد ساعدتها هذه الإمكانيات التي تمتعت بها في تطوير نشاطها الفلاحي، وذلك من خلال العمل على إحياء الأراضي القاحلة والجرداء، وتزيين المدينة والبوادي والقرى المجاورة لها بالمزارع على اختلاف أنواعها ونصب الأرجاء على كافة أرجاء الأودية والجداول، وغرس البساتين الجامعة لأنواع الأشجار والأزهار[35].

وفي هذا الصدد تخبرنا كتب الجغرافية عن أهم القرى والأسواق الواقعة بين أشير ومليانة ومنها سوق كران الذي أشار إليه الرحالة ابن حوقل في حديثه قائلا بأنه "سوق وحصن روماني، وكانت الأراضي المحيطة به مستغلة في الزراعة لأنها تقع على نهر وهو على مرحلة من مليانة"[36].

أما فيما يخص الثروة المائية فقد وصفها بقوله: "بها عيون مطردة ومزارع وأجنة واسعة، والمياه لم تكن تستعمل لشرب سكانها، بل لري الأراضي المجاورة لها"[37].

إلا أن ومن خلال استعراضنا للنشاط الزراعي لمدينة أشير، نجده غير كاف ومقتضب وناقصا جدا، وذلك بسبب سكوت المصادر التاريخية والجغرافية عن هذا النشاط خاصة فيما يتعلق بأهم المنتوجات الزراعية التي كانت تشتهر بها مدينة أشير في العصر الوسيط، وأهم مراكز أو أماكن تواجدها وكمياتها ونسبها المئوية، وهذا وإن دل على شيء، فإنما يدل على أن هذه المصادر سواء كانت تاريخية أو جغرافية قد أولت اهتماما بدراسة الجانب السياسي على حساب غيره من الجوانب الأخرى.

2-2- **النشاط الحرفي:** حسب ما تظهره النصوص التاريخية والجغرافية في هذا الجانب، أن مدينة أشير اشتهرت بكثرة حرفيها الذين ساهموا مساهمة كبيرة في استغلال المواد الخام التي كان إنتاجها وفير في الريف[38].

وحول هذا النشاط الحرفي الذي شهدته مدينة أشير يذكر مبارك بن محمد الميلي قائلا:" تعددت الصنائع، وترقت الحرف من خشابه ونجارة وخراطة وحياكة وقطن وحرير، واستخرجت المعادن من مختلف الجهات"[39].

وبذلك عرفت المدينة تنوعاً في الحرف والمهن، كمهنة أو حرفة النجارة أو الخراطة والحدادة والحياكة وصناعة القطن والحرير أو ما يعرف بصناعة الملابس وصناعة الأثاث نتيجة لوفرة الثروة الخشبية، ويعود سبب هذا التنوع في الحرف والمهن إلى غنى المدينة بالمواد الأولية، سواء كانت سطحية أو باطنية.

3-2- **النشاط التجاري**: تشير النصوص التاريخية والجغرافية على أن مدينة أشير، شكلت خلال العصر الوسيط مركز إنتاج كبير للمنتوجات من جهة، ونقطة هامة لتجمعات الهائلة من المستهلكين سواء كانوا من الطبقة المتوسطة الكثيرة العدد أو من طبقة الأثرياء[40].

وفي هذا الصدد، فقد أفادنا الرحالة البكري (ت487هـ/1094م) في كتابه المسالك من خلال وصفه لبلاد المغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي بمعلومات هامة حول هذا الإقليم، وذلك لكون أن هذا الأخير كان على إطلاع واسع بأحوال مدن المغرب الأوسط من جميع النواحي[41].

ومن بين المعلومات التي أخبرنا بها المؤرخ حول مدينة أشير ما ذكره قائلا:" أن المتوجه من أشير إلى مليانة فإنه يمر بقريتين هامتين، هما سوق هوارة، وسوق كرم، والملاحظ أن هاتين القريتين كانت ذات أهمية تجارية، وإلا ما ذكرها البكري، غير أن المؤسف أن المؤلف البكري لم يهتم بتقديم تفاصيل مهمة عن أهم منتوجاتها[42].

كما يخبرنا مبارك بن محمد الميلي عن أهم الطرق والمسالك التجارية التي كانت تربط بين مدينة أشير وباقي المناطق المجاورة قائلا: "وكانت الطرق تخرج منها إلى سوق حمزة غربا على طريق شعبة وإلى متيجة شمالا على طريق المدية، وإلى تيهرت غربا وإلى مليانة على شلف شمالا غربيا وإلى المسيلة جنوبا شرقيا"[43]، ويؤكد قول هذا المؤرخ رشيد بورويبة الذي ذكر في ذات الشأن قائلا: "أنه في العهد الحمادي كانت عدة طرق تخرج من بجاية وقلعة بني حماد وقسنطينة وأشير وغيرها من مدن المغرب الأوسط"[44].

وبذلك استطاعت مدينة أشير من خلال هذه الشبكة من الطرق والمسالك البرية التي توفرت عليها أن تستوقف الرحالة والتجار خاصة في مجال التجارة الداخلية بسبب تفقت أسواقها بمختلف البضائع[45]كما ربطها هذا العدد الكبير من المسالك بأقطار العالم الخارجي، ذلك لكونها شكلت مركزا تجاريا هاما من خلال

ما توفرت عليه من أسواقا نافقة غاصت بأنواع المنتوجات[46]، إلا أن وكعادتها المصادر التاريخية والجغرافية نجدها قد سكتت عن أنواع المنتوجات هذه والبضائع هل هي مواد خام أو مواد مصنعة ، كما نجدها قد سكتت عن أهم المبادلات التجارية من صادرات و واردات، وعن قيمها ونسبها المئوية.

4- **الجانب الثقافي والعمراني**:

4-1- **الجانب الثقافي**: لم يتوان علماء مدينة أشير عن غيرهم عبر عصورهم في صناعة الثقافة الإسلامية، والتحلي بها، فقد كانت مدينة أشير حاضرة فكرية تتميز بتراثها الإسلامي والمادي والروحي والأدبي الذي أشاعت به على العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط من خلال إسهامات علمائها الأجلاء في تنشيط الجانب الثقافي والعلمي[47].

وتخبرنا المصادر التاريخية والجغرافية في هذا الإطار، أن من بين العلماء الذين نسبوا لمدينة أشير، وكان لهم الفصل الكبير في نشر العلوم وتنوير العقول، وتنشيط الحركة العلمية ونهضتها بمدينة أشير نذكر العالم الفاضل والجليل أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري (ت561هـ/1166م) الذي لم تذكر المصادر التي اهتمت بترجمة سيرته تاريخ مولده، ومراحل تكوينه العلمي، وشيوخه، ولا العلوم التي تلقاها، ما عدا تلك المعلومات التي يذكره ياقوت الحموي في شأنه حيث قال عنه: "ومن أشير هذه الشيخ الفاضل أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري إمام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب خاصة وبالشام عامة، استدعاه الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد وطلب من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، فسيره إليه، وقرأ كتاب ابن هبيرة الإيضاح في شرح معاني الصحاح بحضوره، ثم سار من بغداد إلى مكة ثم عاد إلى الشام فمات في بقاع بعلبك سنة (561هـ/1166م)"[48].

من خلال النص، يتضح لنا جليا أن الشيخ العالم أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري كان أحد العلماء الأشيريين الذين نبغوا في حقل العلوم النقلية أو الدينية وفي مقدمتها علم الحديث وعلم الفقه إلى جانب إجادته وتفوقه في فن الأدب، حتى ضرب به المثل فيهم ببلاد المشرق خاصة بحلب وبلاد الشام بشكل عام.

وقد ساعده نبوغه هذا في هذا النوع من العلوم في علو مكانته ومنزلته بين علماء عصره، الأمر الذي دفع بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي لاستدعائه، الجلوس إليه لسماعه وهو يقرأ كتاب ابن هبيرة الإيضاح في شرح المعاني الصحاح، كما أنه مارس الرحلة في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، ومن ذلك مدينة بغداد، ومكة وبلاد الشام كما سبق وأن أشرنا لذلك، وهو ما ساهم في علو كعبه العلمي واتساع رصيده المعرفي، وهي السمة التي عرف بها وبقي مواظبا عليها إلى أن توفي في بعلبك سنة 561ه، وكان بفقدانه هذا، قد شكل أكبر خسارة للمغرب الأوسط بصفة خاصة والعالم الإسلامي بصفة عامة.

كذلك من رجال العلم والصلاح الذين اشتهرت بهم مدينة أشير في العصر الوسيط نجد محمد بن القاسم بن منداس أبو عبد الله المغزلي البجائي الجزائري الأشيري (ت557-643هـ/1162-1245م)[49].

ويرجع تعريفه بالأشيري بالدرجة الأولى إلى أسرته التي تعود أصولها إلى مدينة أشير، هذه الأخيرة التي انتشر سكانها في الأقاليم القريبة والبعيدة من مدينتهم[50].

من بين المصادر التي ترجمت له المؤرخ الذهبي الذي يذكر أنه ولد سنة (557هـ/1162م)[51]، غير أنه لم يوضح لنا أين ولد، هل بمدينة أشير أو بمنداس، أما فيما يخص تكوينه، قد تلقى تعليمه على عدة شيوخ، ومنهم الشيخ الجزولي الذي استفاد منه في علم العربية الذي اشتهر فيه فدرسه، أما عن أهم تلامذته من الأندلس الذين اتصلوا به واستفادوا منه. تذكر المصادر التاريخية لنا ابن البار صاحب كتاب التكملة الذي أجازه، أما بالنسبة لوفاته، فكانت في محرم سنة (643هـ/ 1245م)[52]، ودائما مما يؤسف له هو سكوت

المصادر التاريخية والجغرافية عن العديد من العلماء والأدباء الذين ذاع صيتهم بمدينة أشير خلال العصر الوسيط، خاصة أولئك الذين كان لهم باع كبير، ودور فعال في تنشيط الحركة العلمية من أمثال الشيخ العالم أبو محمد عبد الله محمد الأشيري والشيخ العالم محمد بن القاسم بن منداس أبو عبد الله المغربي البجائي الجزائري الأشيري الذين ذكرناهم سابقا، ولعل هذا السكوت يعود بالدرجة الأولى إلى اهتمام هذه المصادر والنصوص بالجانب السياسي والعسكري على حساب باقي الجوانب الأخرى ومنها الجانب الثقافي .

4-2- **الجانب العمراني**: شهدت مدينة أشير توسعا عمرانيا ملحوظا نتيجة التضخم الثقافي الذي نتج عن اختطاط المدينة، وتزايد عدد المهاجرين من التجار وطلبة العلم القادمين إليها[53].

ويعود سر في التوسع العمراني هذا إلى المجهودات المضاعفة التي قام بها بلقين بن زيري (971-994م) لتوفير مختلف شروط النمو وتعمير مدينة أشير بالإنجازات العمرانية، حيث أكثر منها المساجد والفنادق والأسواق والمنازل والحمامات والدكاكين، وهو ما دفع طلاب العلم والتجار إلى الارتحال إليها، الاستقرار بها، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ مبارك بن محمد الميلي قائلا: "ولما أخذ زيري بدعوة بني عبيد أذن له المنصور بن القائم في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بأشير، وطبع بها نقودهم ذهبا وفضة، وعين بها أبناؤه من بعده"[54].

وتشير النصوص التاريخية والمصادر الجغرافية على أن مدينة أشير كانت تتكون من ثلاثة أحياء سكنية هي منزة بنت السلطان وأشير (القصر) وبنية، وقد كانت هندسة بناءها عموما خاصة من ناحية التصميم والتنظيم لا تختلف عن هندسة البناء في بلاد المغرب الإسلامي المستوحاة من الهندسة المعمارية العربية الإسلامية والمتمثلة في القصور والأسوار وغيرها من الموافق[55].

1- **منزه بنت السلطان**: هي حصن، له شكل قمة الصخرة، وهو مثبت على صخرة المدرجة بطريقة تجعلها متينة، أستخدم في بنائها دعامات على شكل سلم أو على شكل حرف لا تيني (T)، وتدخل السور من باب مفتوح في الجدار الغربي ونصل إليه بواسطة سلم وهذا الباب يحميه برج[56] يوجد البرج النصف الدائري بالطرف الشمالي للحصن، وهو يشمل على غرفة تستعمل كمأوى للجند، أو كنقطة لمراقبة المناطق الشمالية[57]، أما الجهة الغربية فيوجد بها برج آخر وظيفته الرئيسية هي التحكم في المسلك الوحيد المؤدي إلى الحصن الرئيسي[58].

يحتوي الحصن على عمارتين يفصل بينهما صحن داخلي يساوي طوله 15 متر وعرضه 6 أمتار، ويشمل غرفتين متساويتين المساحة، أما الفناء فكان يستعمل كمركز احتشاد إضافة إلى أربع حجرات، اثنان تقع شمال الحصن الداخلي واثنين جنوبه وخزان مربع الشكل كانت البئر المتصلة به أسطوانية الشكل سعتها 7363 لترا[59].

2- **قصر أشير:** هو قصر مشيد بالحجر، محاط بصور مستطيل ومحصن بدعائم مربعة الزوايا ومستطيلة بالأضلاع، ندخله من باب يؤدي إلى صحن كبير، وبصحونه الخمس أشكال مختلفة مزينة بألواح منقوشة وبخيوطه المزينة أقواس مثل الأشكال والنقوش الموجودة بجامع سيدي عقبة بالقيروان أو جامع الزيتونة بتونس[60] .

أُستخدم القصر كحصن من قبل الرومان قبل الفتوحات الإسلامية ومن بين القرى والمدن المجاورة للحصن له نذكر قرية رطل ماوزغة التي تقع بين سوق كران ومدينة أشير وتتميز بالمياه العذبة ومدينة هازم الذي قال في شأنها اليعقوبي (ت277هـ/888م) أنها تحيط بها قرى ومنازل للقبائل البربرية[61]، وحسب

ما ذكره البكري (ت487هـ/1094م) عنها أنه كان أغلب سكانها من بني برزال وبني دمر الأباضين، ولعل هذا هو السبب الذي دفع زيري بن مناد إلى الهجوم عليها وتدميرها.

3- **مدينة البنية**: تقع قبالة أشير وتبعد عنها بمسافة 2.5كلم[62]، تتمتع بموقع استراتيجي ساعدها على التحكم في المنطقة ومراقبتها نظرا لإطلالها على ثلاثة اتجاهات هي الغرب والشمال والشرق، من بين أثار التي وجدت بها نذكر سورها الذي يساوي حوالي مترين، وبئر وكذلك المسجد الذي أكد على وجوده جورج مارسي الذي زار المدينة سنة 1912م، وبالإضافة إلى العمود الرخامي والكتابة المنقوشة على الحجر الذي اكتشفها.

وقد ساعد هذا التوسع العمراني على إنشاء حضارة من أرقى الحضارات التي تميزت بالنقش والتزيين، وتذكر النصوص التاريخية في هذا الشأن أنه قد عثر على أدوات من الخزف المطلي فيها كتابات عربية بارزة وبعض الأدوات من الزجاج وكلها تدل على صناعة خزفية وزجاجية راقية[63].

غير أنه وبتأسيس حماد القلعة سنة(398هـ/1007م) أخذت عمارة أشير تتراجع بسبب تعرضها للعديد من التغيرات، فقد خربها يوسف بن حماد أيام ثورته على أخيه محسن الأمير الحمادي الثالث واستباح أموالها سنة (446هـ/1054م)، ثم تراجع الناس إليها بعد سنة(455هـ/1063)، ثم تعرضت لغارات الهلاليين، ثم استولى عليها سنة (468هـ/1057م) ابن خزرون الزناتي ، ثم أعيدت إلى بني حماد حتى استولى عليها المرابطون بقيادة تاشفين بن تامر والي تلمسان ثم أعاد بناءها الحماديون بعد الضعف الذي شهدته دولتي المرابطين والزيريين إلى أن سقطت الدولة[64].

ويشير عبد الحليم عويس إلى أن أطلال أشير لا تزال باقية اليوم عند كاف الأخضر وتسمى اليوم بنية أو منزة بنت السلطان، وتبلغ مساحتها 5 فدانا وأطلالها الحالية مقابلة لأشير القديمة، ومن آثارها ثلاث أبواب لازالت لها بقايا، وعلى بعد 5.6 كلم جهة الغرب من المنحدر الشمالي لكاف الأخضر نجد أطلال منزة بنت السلطان قائمة على أعلى قمة صخرية، ويوجد بقايا بنائية وصهريج وبرج كبير ومساحة داخله أما البقعة التي كانت تقوم عليها المدينة فهي حقول مزروعة اليوم[65].

خاتمة:

وعليه، فإن ما يمكن استنتاجه في الأخير، هو أن مدن المغرب الأوسط بصفة عامة ومدينة أشير بصفة خاصة قد استطاعت أن تشارك بمجهود كبير في بناء معالم الحضارة الإسلامية والإنسانية وإرسائها وإثرائها من خلال تقديمها الكثير من الأعمال الإبداعية والمنجزات الحضارية خلال العصر الوسيط.

الملاحق:

خريطة تمثل موقع مدينة أشير[66]

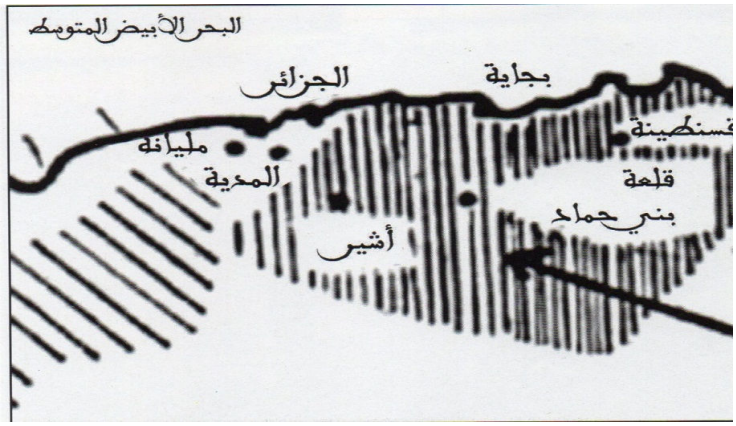

صورة تمثل طبيعة مدينة أشير[67]

صورتان تمثلان النمط العمراني بمدينة أشير[68]

فهرس المصادر والمراجع:

1) الإدريسي أبو عبد الله الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ... (د.ط) (ب.ت).
2) إيمان زيان، مدينة أشير، النشأة والتطور (324ه/ 935م) مذكرة ماستر، تخصص القرون الوسطى، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2017.
3) حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2011.
4) ابن حوقل أبو القاسم، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996.
5) خلف محمد نجيب، المغرب الأوسط في كتابة الرحالة والجغرافيين العرب. مقال ضمن كتاب تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 – طبعة خاصة، الجزائر 2007.
6) الذهبي خير الدين، سير أعلام النبلاء، تح حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004.
7) رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية والمركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977.
8) رشيد بورويبة، مدن مندثرة تاهرت، سيدراتة، أثير قلعة بن حماد (د.ط) سلسلة فن وثقافة الجزائر.
9) الطاهر طويل، المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط بين النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الخامس – ط1، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإسلامية، الجزائر، 2011.
10) عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
11) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1957.
12) أبي عبد الله البكري (ت 487ه) جمال طلبة كتاب المسالك والممالك، منشورات محمد علي بيضور. دار الكتب العلمية ط1، بيروت – ج1، 2003.
13) مبارك بورطان، مدينة أشير النشأة والتطور، المدرسة العليا بوزريعة، الجزائر.
14) مبارك محمد الميلي تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1989.
15) مجهول كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق ونشر سعد زعلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق.
16) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1997.
17) C.F.R Massiera,Milan du X .au XV Bulletin de la société d'histoire et de géographie de Serif 1941, T11.
18) Capitaine Rodet ,les ruines d'Achir,in revue Africaine,1908,p86, Marcais(G),Manuel d'art musulman,tl,Paris,1926.
19) Golvin(L), le maghrib central a' L'époque des zirides, Paris, 1957.
20) Marcais(G), Achir (Recherches d'archéologie Musulmane), in revue africain, 1922,30-n

الهوامش

[1]- أشير: بكسر الشين وسكون الياء والراء معناها باللهجة البربرية المخالب، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1997، ص 202.

[2]- حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2011، ج2، ص 295.

[3]- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية والمركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977، ص 9.

[4]- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 86.

[5]- مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989، ج2، ص ص 215 259-260.

[6]- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 202.

[7]- إبن حوقل أبو القاسم، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996، ص89-90.

[8]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حاجي، دار الغرب، ط2، بيروت، 1983م، ص41.

[9]- رشيد بورويبة، مدن مندثرة تاهرت، سدراتة، أشير، قلعة بني حماد، الجزائر، وزارة الثقافة والإعلام، ط1981م، ص85، مبارك بورطان، مدينة أشير النشأة والتطور، المدرسة العليا بوزريعة، الجزائر، ص342.

[10] -Capitaine Rode , les ruines d'Achir,in revue Africaine,1908,p86, Marcais(G),Manuel d'art musulman,tl,Paris,1926-p112,

[11]- إيمان زيان، مدينة أشير، النشأة والتطور (324ه/ 935م) مذكرة ماستر، تخصص القرون الوسطى، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2017، ص 7.

[12]- مبارك محمد الميلي المصدر السابق، ج2 ص 272.

[13]- المصدر نفسه، مادة أشير، ص ص 253-254، رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 87 خلف محمد نجيب، المغرب الأوسط في كتابة الرحالة والجغرافيين العرب. مقال ضمن كتاب تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، طبعة خاصة، الجزائر 2007، ص 248.

[14]- هو أبو عبيد الله بن أبي مصعب عبد العزيز بن أبي زيد محمد أيوب بن عمر البكري، نسبة إلى بكر بن وائل، ولد في شلطين غربي أشبيلية، ينظر ترجمته في مقدمة كتاب المسالك والممالك، لأبي عبد الله البكري المتوفي 487ه، منشورات محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج1، ص.ب.

[15]- المصدر نفسه، ص 241.

[16]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90.

[17]- صنهاجة بكسر الصاد، وقد تضم، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم، كانوا فيما بين زناتة وزواوة وانحدرت منهم أمة إلى الجنوب في أزمنة قديمة، فكثروا بالصحراء جنوب المغرب تشعبت صنهاجة إلى شعبين عظيمين إحداهما بالجزائر والآخر بالصحراء وهم الملثمون فأما صنهاجة الجزائر فهم أهل مدر من مدنهم أشير والمدية ومليانة ومتيجة والجزائر ينظر حول ذلك مبارك بن محمد الميلي، المصدر السابق ج2، ص 215.

[18]- حساني مختار، المرجع السابق، ج2، ص 297.

[19]- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1957، ج6، ص 318 حساني مختار، المرجع السابق، ج2 ص 298.

[20]- خلف محمد نجيب، المرجع السابق، ص 24، C.F.R Massiera,Milan du X .au XV Bulletin de la société d'histoire et de géographie de Serif 1941, T11,pp183-215

[21]- مبارك بن محمد الميلي، المصدر السابق، ج 2، ص 272.

[22]- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 87.

[23]- ينظر حول ذلك ابن حوقل، المصدر السابق، ص 91، البكري، المصدر السابق، ص 60، مبارك بن محمد الميلي، ج2، المصدر السابق، ص272.

[24]- البكري أبو عبيد الله، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص60.

[25]- خلف محمد نجيب، المرجع السابق، ص 88.

[26]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 91.

[27]- الإدريسي أبو عبد الله الشريف، نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ... (د.ط) (ب. ت) ص 61.

[28]- مجهول كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق ونشر سعد زعلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ص 170.

[29]-Golvin(L) ,le maghrib central a' L'époque des zirides,Paris,1957, p47, Marcais(G), Achir (Recherches d'archéologie Musulmane),in revue africain,1922,30-n=130.

[30]- ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص203، شموس، المرجع السابق، ص 248.

[31]- المصدر نفسه، ص 248.

[32]- البكري، المصدر السابق، ص 49.
[33]- خالف محمد نجيب، المرجع السابق، ص 89.
[34]- مبارك بن محمد الميلي، المصدر السابق، ج2، ص 259.
[35]- المصدر نفسه، ص 259.
[36]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 95، حساني مختار، المرجع السابق، ج2 308.
[37]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص96، حساني مختار، المرجع السابق، ج2 296.
[38]- المرجع نفسه، ص 206.
[39]- مبارك بن محمد الميلي المصدر السابق، ج2، ص 250.
[40]- خالف محمد نجيب، المرجع السابق، ص 206.
[41]- البكري، المصدر السابق، ص 60.
[42]- خالف محمد نجيب، المرجع السابق، ص 249-250.
[43]- مبارك بن محمد الميلي، المصدر السابق، ج2، ص 272.
[44]- رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 147.
[45]- مبارك بن محمد الميلي، المصدر السابق، ج2، ص 259.
[46]- خالف محمد نجيب، المرجع السابق، ص 206.
[47]- مبارك بن محمد الميلي، المصدر السابق ج2، ص 259.
[48]- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 212.
[49]- حساني مختار، ج2، المرجع السابق، ص 302.
[50]- المرجع نفسه، ج2، ص 309.
[51]- الذهني خير الدين، سير أعلام النبلاء، تح حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004، ص 64.
[52]- المرجع نفسه، ج2، ص 303.
[53]- مبارك بن محمد الميلي، المصدر السابق، ج2، ص260.
[54]- المصدر نفسه، ج2، 272.
[55]- إيمان زيان، المرجع السابق، ص 48.
[56]- رشيد بورويبة، مدن مندثرة تاهرت، سيدراتة، أثير قلعة بن حماد (دط)، سلسلة فن وثقافة، الجزائر، ص 74.
[57]- محمد شموس، المرجع السابق، ص 260.
[58]- إيمان زيان، المرجع السابق، ص 50.
[59]- المرجع نفسه، ص 50.
[60]- رشيد بورويبة، المدن المندثرة، المرجع السابق، ص 71، إيمان زيان، المرجع السابق، ص 51.
[61]- اليعقوبي، كتاب البلدان، د.ط، بريل، ليدن، 1890، ص95.
[62]- الطاهر طويل، المدية الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط بين النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الخامس، ط1، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإسلامية، الجزائر 2011، ص 271.
[63]- مبارك بن محمد الميلي، المصدر السابق، ج2، ص 260.
[64]- المصدر نفسه، ج2، ص 273، عبد الحليم عويس، المصدر السابق، ص 311.
[65]- ينظر دائرة المعارف الإسلامية، ج2، ص 234، المرجع السابق، ص 87، خير الدين الزركلي، قاموس تراجم الأعلام، ط7، دار العلم للملايين بيروت، 1986، عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 87.
[66]- حساني مختار، المرجع السابق ص 366.
[67]- المرجع نفسه ص 367.
[68]- المرجع نفسه، ص -ص 368 -353.